الحضارة الإسلامية وأثرها في الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية

أولاً: أثر الحضارة الإسلامية في الحياة السياسية:

وضع الإسلام الأسس العامة للدولة. ولم يتعرض في كثير من الأحوال للتفاصيل وكان من جراء ذلك أن تطورت نظم الحكم والإدارة والتشريع في الدولة الإسلامية حسب الظروف التاريخية ومقتضيات المجتمع وتقاليد الأمم التي دخلها الإسلام،ولكن في إطار أحكام الإسلام ومبادئه الأساسية، ومن ثم حظيت الحضارة الإسلامية بنظم ووظائف ومرسيم تطورت إلى درجة رفيعة من الدقة والتنسيق، ومن أهم هذه النظم وأكثرها شمولاً الخلافة والإمارة والوزارة وإدارة الدواوين والقضاء والجيش.

الخلافة

اشترط الفقهاء للخلافة أربعة شروط يجب أن تتوفر في الخليفة هي العلم والعدالة والكفاية وسلامة الحواس. وكان يتبع الخليفة مباشرة عدد من الخطط الدينية والوظائف الكبرى: وهي الصلاة والفتيا والقضاء والحسبة. وكانت تجب له طاعة المسلمين وسائر رعيته. وكان للخلافة علامات ثلاث هي: البردة والخاتم والقضيب. أما شارتها فكانت ثلاثاً أيضاً: وهي الخطبة والسكة والطراز.

ولم تكن الخلافة وراثية إلى أن جاء معاوية فجعلها وراثية في أسرته، وذلك حين حاول الخليفة ا لأموي معاوية أن يحصل على البيعة لإبنه

يزيد، وظلت وراثية من ذلك الوقت، غير أن الخليفة كان لابد من أن يبايعه المسلمون[١].

الوزارة

عرفت وظيفة الوزير بصفة غير رسمية عند العرب قبل الإسلام وفي صدر الإسلام، إذ كان العرب قبل الإسلام يسمون أبا بكر وزير النبي، وكذلك كان شأن عمر مع أبي بكر وشأن علي وعثمان مع عمر. وفي عصر بني أمية تلقب بالوزير زياد بن أبيه في عصر معاوية.

غير أن وظيفة الوزير بدأت تتحدد معالمها في العصر العباسي، إذ صار الخليفة العباسي يستعين في إدارة شؤون الدولة وتصريف أمورها والإشراف على دواوينها وإعداد مكاتباتها وتنظيم أموالها بموظف أطلق عليه لقب وزير. ويبدو أن منصب الوزير في العصر العباسي تطور عن منصب الكاتب في العصر الأموي[٢].

وهناك نوعان من الوزارة هما: وزارة التفويض، ووزارة التنفيذ ويختلف النوعان من حيث السلطات والشروط. فمن حيث السلطات يجوز لوزير التفويض دون وزير التنفيذ مباشرة الحكم والنظر في المظالم وحق تفويض الولاة والانفراد بتسيير الجيوش وتدبير الحروب والتصرف في أموال بيت المال.

---

(١) د/ حسن الباشا، دراسات في الحضارة الإسلامية، ص ٣٣.

(٢) نفس المرجع، ص ٤٠.

ومن حيث الشروط يشترط في وزير التفويض دون وزير التنفيذ: الحرية والإسلام والعلم بالأحكام الشرعية والمعرفة بأمري الحري والخراج. أما فيما عدا ذلك فيستوي النوعان في باقي الحقوق والشروط.

الإمارة

كان نظام الحكم الإسلامي يقتضي أن يلي أمور المسلمين وأل أعلى هو الخليفة له حق الطاعة على الأمة كلها. وكانت البلاد والإسلامية تنقسم إلى أقطار أو ولايات يولي عليها ولاة يستمدون سلطان من الخليفة ويتبعونه. وظل هذا النظام سائداً في الدولة العباسية التي كانت تنقسم إلى عدة ولايات كان يولي على كل منها وال هو الأمير. وقد استخدم لقب الأمير للولاة في جميع الأقطار الإسلامية.

ومهمة الأمير هي النظر في أمور الدين في ولايته ولا سيما الصلاة وإقامتها، والإدارة والسياسة والحكم، والدفاع وإعداد الجيش وقيادته، والحكم والقضاء وتبدبير الأموال. ونييب الأمير من يقوم عنه بأداء هذه الأعمال. وفي حالة تبعية الأمير للخالفة قد ينفرد بالإدارة المالية موظف مستقبل عنه يكون مسئولاً مسئولية مباشرة أمام الخليفة يسمى العامل أو صاحب الخراج.

وعرف الأمير كاسم لوظيفة الوالي في غرب العالم الإسلامي أي في بلاد الأندلس وشمال أفريقيا[1].

(١) د/ حسن إبراهيم حسن، النظم السياسية الإسلامية ، ص ١١٣ .

الكتابة

يطلق لفظ كاتب على كل من يقوم بالكتابة والتحرير. ومهمة الكاتب الكتابة بأشكالها المختلفة من انشائية وحسابية ومالية وغير ذلك. وقد اتخذ النبي ﷺ كتاباً يكتبون له القرآن والوثائق المختلفة كالمكاتبات التي كان يرسلها إلى الملوك يدعوهم فيها إلى الإسلام والعهود واللمعاهدات. ومنذ ذلك الوقت صار للخلفاء كتاب من وذي العلم والمعرفة الملمين بالكتابة. وفي عهد عمر عين لكل ولاية إسلامية كاتب. وكانت مهمة الكاتب تحرير الرسائل والأوامر، ولما انشئت الدواوين اتسعت أعماله فشملت حساب الديوان وأسماء الجند وأعطياتهم.

وقد وجد في عصر الخلفاء الراشدين وصدر نبني أمية ثلاثة أنواع من الكتبة:

كتبة الرسائل، وكتبة ديوان الجيش، وكتبة المال والجبايات وزاد أنواع الكُتَّاب إلى خمسة ظلت موجودة في العصر العباسي وهم: كاتب الرسائل، وكاتب الخراج وكات الجند وكاتب الشرطة، وكاتب القاضي.

وكان أعلاهم كاتب الرسائل.

واحتل الكُتَّاب مكانة رفيعة في العصر الأموي حتى سُمِيَّ بلقب مشير، وزادت مكانة الكاتب في العصر العباسي حتى لقب بالوزير.

(١) د/ حسن الباشا، دراسات في الحضارة الإسلامي ، ص ٤٨ ـ ٤٩ .

وكان الكُتَّاب في الولايات يسيرون على نهج كُتَّاب الخلافة الإسلامية. وكان الكتاب ينقسمون في الولايات إلى قسمين كتاب الرسائل وكتاب الخراج.

الحجابة

عرفت الحجابة في مكة قبل الإسلام وكانت تعني حراسة الكعبة وحفظ مفتاحها.

وعرفت الحجابة في الإسلام، إذ أصبح «الحاجب» يطلق على من يقوم بين الوالي وبين الناس ويطلب لهم الإذن لمقابلته، وينظم الاتصال له، ولذلك كان من الطبيعي أن يكون على صلة وثيقة به. واستمرت وظيفة الحجابة في الدولة العباسية وزادت أهميتها وسلطتها تدريجياً.

وعرف الحاجب في غرب العالم الإسلامي حيث تطور مدلوله واختصاصاته ففي أول الأمر كان الحاجب في الدولة الأموية بالأندلس يقوم بالوساطة بين الخليفة ووزارته وأخذت سلطة الحاجب في الاتساع حتى أصبح أرفع شأناً صار يسمي بذي الوزارتين وصار يشرف على الشؤن المدنية والعسكرية، ثم زاد نفوذه حتى استبد بالأمر وسيطر على الخليفة، وبذلك صارت إليه أمور الدولة في أواخر الخلافة الأموية بالأندلس(١).

(١) د/جمال سرور ، يام الدولة العربي، ص ٣٩-٤٢ .

الدواوين

كانت الإدارة الحكومية في الدولة الإسلامية موزعة على عدد من الدواوين، وقد عرف الديوان في الدولة الإسلامية بمعنى السجل وصارت المكاتبات تكتب باللغة العربية في عهد عبد الملك بن مروان الذي أمر بتعريب الدواوين. ومن ثم أطلق على الديوان الإدارة الحكومية التي تقوم بجباية الخراج والضرائب وكان مكان الديوان في أول الأمر في المسجد ثم نقل إلى دار الأمارة أودار الوزير أو القصر وقد تطورت الدواوين وازداد عددها في الدولة الإسلامية وتنوعت نظراً لما وصلت إليه أنظمة الدولة من تخصص وتنظيم. وكان لهذه الدواوين رؤساء يسمون أصحاب الدواوين. وكان بكل ديوان كتاب وخازن وبوابون وأعوان. وكان يمد بالصحف والأوراق (القراطيس). ومن أشهر الدواوين دويان الرسائل وديوان بيت المال وديوان الجند وديوان البريد وغير ذلك.

فقد لعب ديوان الرسائل دوراً مهماً في إداراة الدولة الإسلامية، ويرجعت أصل هذه الديوان إلى وظيفة الكاتب الذي كان يقوم بكتابة الرسائل للولاة. وفي العصر العباسي زادت المكاتبات الإدارية زيادة دعت إلي تنظيمها وإسناد مهمتها إلى ديوان الرسائل، وكانت مهمته إنشاء صيغ الكتابات الرسمية وتحريرها. وكان رئيسه يلقب بصاحب أو رئيس

(١) د/حسن الباشا، المرجع السابق، ص ٥٢ ـ ٧٢.

ديوان الإنشاء. وعلى نمط ديوان الرسائل في عاصمة الخلافة الإسلامية قامت في الولايات المختلفة دواوين مماثلة تنظم المكاتبات الإدارية بين الولاية وغيرها من الولايات والبلاد الأجنبية.

أما ديوان البريد فيقوم بنقل الأخبار إلى الوالي وإخطاراه بما يجد في ولايته، وكان من عمل البريد في العصر العباسي نقل الأخبار السرية، وكان يسمى القائم بنقل الأخبار بريدي، ويقال للمشرف على البريد أو صاحب البريد وغير ذلك من المسميات(١).

القضاء

اعتبر القضاء في الوظائف الإسلامية من الوظائف الدينية المتصلة مباشرة برأس الدولة،وربما كان الاسم الرسمي للقاضي هو الحاكم. وكانت مهمة القاضي هي الفصل بين المتنازعين حسب الشريعة الإسلامية. وكان يقوم بها في أول الإسلام النبي ﷺ، ولما زاد عدد من الصحابة. وفي خلافة عمر وضع للقضاء نظام محكم فعين القضاة للمدن في الدولة الإسلامية، وسنت لهم النظم والقواعد التي يجب عليهم اتباعها وكان الخلفاء الراشدون يختارون القضاة من العلماء المسلمين بأحكام الشريعة الإسلامية والمعروفين بتقوى الله وتحري العدل وغير ذلك من الصفات الحميدة. وزادت صلاحيات القاضي بعد ذلك بحيث أصبح مسئولاً عن

(١) د/ حسن الباشا، المرجع السابق ، ص ٧٠ ـ ٧٢

الشرطة والمظالم والحسبة وبيت المال وغير ذلك من الوظائف الأخرى.

وظهرت في العصر العباسي وظيفة قاضي القضاة، وهو يطلق على كبير القضاة وكان مقره عاصمة الخلافة، وهو يقوم بتعيين القضاة في سائر الولايات وله حق الإشراف عليهم ومراقبتهم(١).

الشرطة

والشرطة هم الجنود المكلفون بالمحافظة على الأمن الداخلي، بمنع وقوع الجرائم والقبض على الجناة ، وعمل التحريات اللازمة، وتنفيذ العقوبة التي يحكم بها القضاة، وإقامة الحدود. وكان رئيس الشرطة يسمى صاحب الشرطة.

وظهرت وظيفة صاحب الشرطة في عهد علي بن أبي طالب، وكان صاحب الشرطة يختار من علية القوم وذوي العصبية.

ووضحت مهمة الشرطة في العصر الأموي وزاد تنظيمها وتنسيقها في العصر العباسي، إذ صار لكل مدينة شرطة خاصة تخضع لرئيس هو صاحب شرطة هذه المدينة، وكان صاحب الشرطة يتخذ له نائباً ومساعدين يسمون الأعوان. وكان الشرطة يتخذون أعلاماً خاصة ويلبسون زياً خاصاً ويحملون مطارد وتروساً تحمل كتابات باسم صاحب الشرطة، ويحملون في الليل الفوانيس ويصطحبون كلاب الحراسة. وكان

(١) نفس المرجع ، ص ٦٥ .

صاحب الشرطة يولي أحياناً الإمارة، كما كان الأمير يولي الشرطة في بعض الأحيان بعد عزله من الإمارة.

وكان صاحب الشرطة يسهم في عصر الولاة في أعمال الحسبة والإشراف على ديوان الأوقاف وتنظيم مرتبات الجند[١].

الحسبة

نشأت وظيفة الحسبة في عهد المهدي نظر الاهتمام العباسيين بجعل الشريعة الإسلامية أساساً لحكمهم. وكان المحتسب يختار من بين رجال الدين والقلم الملمين بأحكام الشريعة والأشداء في الحق وذوي الثقة والأمانة. وكانت اختصاصات المحتسب تشمل تأديه العبادات والأمر بالعروف والنهي عن المنكر ووضع ما يتعارض مع القيم الإسلامية، والمحافظة على الأخلاق العامة، والمحافظة كذلك على صحة المواطنين وسلامتهم، وضع ما يعكر الأمن.

وكان من عمل المحتسب النظر في الأسواق والإشراف على الموازين والمكاييل، ومراقبة الأسعار ومنع الاحتكار ومراقبة التجار وأصحاب الحرف حتى يمنع الغش و التدليس[٢].

---

(١) د/ حسن الباشا، المرجع السابق ، ص ٧٢ .

(٢) نفس المرجع ، ص ٧٣ .

النظام الحربي

كان جميع المسلمين القادرين في عهد الرسول والخلفاء الراشدين أفراداً في الجيش فكان إذا دعى للجهاد خرج كل قادر على حمل السلاح،وكان النبي ﷺ والخلفاء الراشدون يولون لكل حملة أميرا وربما جعل للأمير نائب. وكان يغرض لجميع المسلمين عطاءات.وكان عمر بن الخطاب أول من سجل أسماءى الجند وحدد أعطياتهم، وأطلق على هذا الديوان اسم ديوان الجند . وظل العنصر الغالب في الجند من العرب. وتكون في العصر الأموي جيش أشبه بالجيش النظامي واستمر الجند يحصلون على أعطيات في العصر الأموي إلى أن تحدد لهم مرتبات وأجور في العصر العباسي إذ بلغ راتب الجندي في العصر العباسي ٩٦٠ درهما في السنة علاوة على الطعام والمخصصات الأخرى.

وكان للأمويين أسطول بحري قوي ألقى الرعب في قلوب أعدائهم من البيزنطيين. وكان قائد الجيش يسمى أميراً[١].

(١) د/ فهمي شتا ، ظهخور القوة البحرية الإسلامية ، مجلة الدارة ، العدد الأول.

الدبلوماسية والسفارات في الإسلام

كانت الدبلوماسية في الجغاهلية مقصورة على إيجاد العلاقات الودية بين القبائل المجاورة ولغرض في التجارة، وكانت تتم بالأسفار والانتقال والقوافل والتجارة وبالإجتماع في الأسواق ومواسم الحج، وأشهر العلاقات وهوسير الوفود إلى ملوك فارس والحيرة وغسان وحمير.

ولما جاء الإسلام ، تطورت الدبلوماسية الإسلامية وتطورت أهدافها وأساليبها،واتخذها النبي ﷺ قبل الهجرة من مكة إلى المدينة أسلوباً لنشر الدعوة الإسلامية ، وتتجلى هذه الدبلوماسية فيما أرسله النبي ﷺ وما أوفده من بعوث إلى القبائل العربية، وإلى ملوك الدول المجاورة للدعوة إلى الإسلام ويعد عصر الخلفاء الراشدين امتداداً لعهد النبي ﷺ، إذا ظلت الدبلوماسية وسيلة للدعوة إلى الإسلام ونشر رسالته، وعقد المعاهدات بين ممثلي الأقطار والدن الداخلة تحت لواء حكم الخلفاء الراشدين . وكذلك الحال في عصر الدولة الأموية، كانت الدبلوماسية لغرض الدخول في الدين الإسلامي أو لتحقيق سلام أو عقد هدنة أو دفع جزية أما في العصر العباسي فأصبحت الدبلوماسية وسيلة لتبادل العلاقات الودية بين الدول وغيرها، وتعددت أغراض السفارات حتى أصبحت وسيلة لنقدية الصلات التجارية والثقافية وعقد المعاهدات، وحتى تعددت السفارات بين الدول الإسلامية والدولة البيزنطية ودولة الفرنجة والهند والصين.

وأنشأ عبد الرحمن الداخل أول خلفاء المسلمين في الأندلس علاقات دبلوماسية مع دول الفرنجة تأكيداً للروابط الثقافية والسياسية والاجتماعية علاوة على حسن الجوار(١).

وكان السفير يمثل الخليفة ويتكلم باسمه ويفاوض عنه، ويبرم المعاهدات بدلاً منه، كان اسفراء يختارون على أقصى غاية في الدقة بحيث يكون السفير ذكياً ومتصفاً بصافا خلفية وعقلية وأإن يكون واسع الثقافة ذا رأي نافذ وحصيف العقل يجعله يستنبط غوامض الأمور ويستشف سرائر القلوب ، ويجب أنيكون فصيحاً ليعجب السامع بحديث وبسحره بحلاوة لسانه ، ثم ليكون كلامه ممتعاً أنيقاً يوصل إلى الهدف المطلوب.

وقد أدرك المسلمون منذ القدم شرف السفارة وأقدار السفراء، فاختاروهم من الشخصيات المبرزة ذات المكانة الرفيعة في العلم والأدب والرجاحة والحصافة وسرعة البديهة وحسن التصرف، ليكونوا أقدر على تمثيل الخلفاء والأمراء والرؤساء واختير كثير من القضاة والفقهاء والعلماء لأعمال السفارات. كما انخب من موظفي الدولة كالوزاراء والكتاب والأطباء من يصلح لمهام الوفادة.

وكان الخلفاء يرشحون السفراء ويزودونهم بكُتَّاب من أجل مهمتهم.

(١) د/ عز الدين فراج ، المرجع السابق ص ١٠٢ ـ ١٠٥ ص ٢٣٣ ـ ٢٣٦ .

وقد امتد نشاط السفراء العرب إلى غربي أوروبا حين بعث شارلمان امبراطور الدولة الرومانية بسفارة إلى هارون الرشيد يوصيه برعياة حجاج بيت المقدس.

وفي الأندلس في عهد عبد الرحمن النصار تقرب إليه ملوك الأسبان والافرنج بالطعة والولاء، وأرسلوا إليه رسولهم وهداياهم من روما والقسطنطينية للمهادنة والسلم، وحضر إلى بابه بعثات من ملوك الأسبان لبلاده، فقبلوا يد الخليفة والتمسوا رضاءه وساروا في موكبه فكانت هذه البعثات الدبلوماسية من ملوك وأمراء أسبانيا سبباً في استتباب السلام من مدة من الزمن.

وكان السفير يزود بجواز سفر أو ورقة طريق، فالمسلمون هم أول من وضع الباسبورت (جواز سفر). ولو تأملنا ما يتبع الآن في الدبلوماسية وتبادل السفراء والبعثات لم يخرج كثيراً عما اتبعه الخلفاء في أيام سلطانهم ومجدهم. وبذلك أصبح كثيراً مما اتبعه المسلمون موضوع تنفيذ الآن[1].

(١) د/ عز الدين فراج، المرجع السابق، ص ٢٣٧ .

ثانياً: إثر الحضارة الإسلامية في الحياة الاجتماعية

يتألف المجتمع الإسلامي من طبقات يقوم على رأسها الخليفة ثم زفراد أسرته وعلية كبار الموظفين وبهذا يتكون المجتمع من الطبقات الآتية.

١ ـ الطبقة الحاكمة وتشمل الخليفة وكبار المظوفين وأتباعه.

٢ ـ الطبقة العليا وتشمل العلماء ورجال الدين والتجار والصناع.

٣ ـ الطبقة الدنيا وتشمل الفلاحين والرعاة والحمالين والشفاعين والرقيق

٤ ـ الطوائف الأخرى: النصارى واليهود والصائبة.

استطاع الإسلام أن يوجد بين الأجناس المخلفة ومزجها معاً في بوتقة الإسلام والعروبة[١].

واهتم الإسلام بالمرأة وكرمها وكان لها نصيب في المجتمع الإسلامي مثل زبيدة زوجة الرشيد التي شاركت الخليفة مجده وعظمته وكذلك عليه والعباسية ابنتا المهدي وكانت عليه قدوة النساء في اتخاذ العصابة المطرزة بالجوهر، وكذلك العباسة كانت بطلة نكبة البرامكة. وهناك شاعرات ومغنيات مثل محبوبة جارية جعفر المتوكل وكانت بارعة في الفنون والأدب.

(١) د/ حسن الباشا، المرجع السابق، ص ١١٢ ـ ١١٤.

ولقد نادى الإسلام بحق المرأة في ممارسة حقوقها المدينة والعمل في التجارة والصناعة.

كما أن الإسلام نادى بالمساواة بين البشر وعلى حرية الرأي والعقيدة والتسامح والعدل والخير وحسن المعاملة والرحمة والإحسان[1].

وقد انتقلت كثير من العادات الكريمة كالأخلاق والتسامح والفروسية والشجاعة والمروءة إلى أوروبا.

ثالثاً: أثر الحضارة الإسلامية في الحياة الثقافية

اهتم الإسلام بالعلم وحث على طلبه وكرم أهله، ومما ساعد العلماء العرب على التفوق العلمي عوامل:

١ ـ حث الدين الإسلامي على طلب العلم كما جاء في القرآن والسنة.

٢ ـ حرية الرأية العلمي فلم يتعرض عالم لمحنة بسبب رأيه العلمي .

٣ ـ رعاية الخلفاء والحكام والولاة للعلم واتفاقهم بسخاء في هذا المجال.

٤ ـ استعلاء العلماء كلهم وزهدهم عن الترف والسلطان.

٥ ـ الاستعداد الذهني مع الصبر والمثابرة حتى أن أعمال العالم منهم يعد بالعشرات والمئات في معظم الأحيان.

(١) أدم متر، الحضارة الإسلامية، جـ ١ ، ص ٥٨ ـ ٦٣ .

٦ ـ الظروف المهيأة لسطوع الحضارة العلمية في العصر الإسلامي حيث أتاحت للأمة العربية الإسلامية أن تقدم نهضة الحضارة الأوربية.

ومهما يكن من أ مر، فقد كان للعربي عقيدة وفلسفة، وكان للعرب نظام حكم أشاع روح العدل والانصاف التسامح فتعايش الناس من ذوي العقائد المختلفة والأجناس يسودهم الأمن والسلام فتجاور المسجد والكنيسة في كل قطر بل في كل مدينة، وظل هذا الوضع زمناً طويلا بسبب روح الأخاء والتسامح التي سادت بين الجميع فقد تربى المسلمون على هذا التعايش والامتزاج. وفتحوا صدورهم للنصارى واليهود الذين درسوا في الجامعات الإسلامية، وحملوا كل أثار العرب وعلومهم إلى أوروبا ومن أهم مظاهر الحياة الثقافية في العالم الإسلامي[١]:

١ ـ كانت المساجد مكاناً للعلم ثم شهدت قصور الخلفاء والأمراء ومنازل العلماء والمكتبات حلقات العلم والتدريس.

٢ ـ كانت الصالونات الأدبية والعلمية مكانا لاستقبال الراغبين في العلم، وهي تشبه الجلسات العلمية. وقد ازدهرت المجالس العلمية في شتى العصور.

٣ ـ خصص الخلفاء وقصورهم أماكن للعلم ورعوا العلم، وأقاموا الدور والمساكن والمقاصير والتدريس وإقامة الحلقات العلمية والمناظرات.

(١) د/ حسن الباشا، المرجع السابق، ص ٩٦ ـ ٩٩ .

٤ ـ يعتبر عصر المأمون من أرقى عصور الدولة العباسية في تاريخ النهضة العلمية بالعالم الإسلامي، إذ كان الخليفة نفسه عالماً من أساطين العلم والعلماء. واختار أصحابه ورجال الدولة من الصفوة والأفذاذ في الشرق والغرب.

٥ ـ انتقلت مجالس العلم وصالونات الأدب والاجتماعات العلمية من قصور الخلفاء والمساجد إلى المدارس، فقد ازداد الإقبال على هذه الحلقات، مما تعذر عقدها في المساجد والأماكن الأخرى.

٦ ـ انشئت المدارس في بادئ الأمر لتعليم العلوم الدينية ، ثم عرفت العلوم الدنيوية كالطب وغيره. وكان بالمدرسة صالة كبيرة وقاعة محاضرات، ومساكن للأساتذة والطلاب، وتلحق بها المرافق العامة. ومن أهم المدارس المدرسة النظامية نسبة إلى نظام الملك في العراق وغيرها من المدن الأخرى.

٧ ـ اهتم المسلمون بإنشاء المكتبات العامة ومن أهمها بيت الحكمة في بغداد، ودار الحكمة في القاهرة. وكانت هذه المكتبات تؤدي ما تؤديه معاهد العلم والجامعات الجمعيات العلمية في الوقت الحاضر(١).

(١) د/ عبد الحليم متصر، المرجع السابق ، ص ٤٩ ـ ٦٢ .

٨ ـ اهتم الخلفاء المسلمون بإرسال البعثات العلمية منذ صرد الإسلام، حين تفوق علماء الصحابة في الأقطار، وأقام كل منهم مركزاً علمياً في البلد الذي حل فيه، فحلقة في اليمن، وثانية في الكوفة، وثالثة في مصر، ورابعة في البصرة وخامسة في المدينة وهكذا، وأصبح لكل مدرسة طابعها المميز . فكان الناس يستمعون إلى حلقات هؤلاء الأساتذة للانتفاع بعلمهم.

٩ ـ وإلى جانب دور المكتبات انتشرت محال الوراق كمراكز للعلم والثقافة إذ كانت تعمل في نسخ الكتب وتجويد الخط وبالإضافة إلى أهميتها كمراكز أدبية، وكان في بغداد في عام ٢٧٨هـ / ٨٩١م أكثر من مائة من محال الوراقة.

١٠ ـ كان للأجناس المختلفة في الدولة الإسلامية دورها في الحركة الثقافية، وظهر فضل العرب بشكل واضح في الشعر، وظلت الثقافة افي العالم الإسلامي ذات طابع عربي وذات صلة وثيقة وبالحياة والتقاليد العربية. وكان الفرس من العناصر البارزة في الحركة الثقافية، كما كان لأهل الذمة من النصارى واليهود والصائبة دورهم في حركة الترجمة التي كان لها أثرها في تطوير الثقافة الإسلامية(١).

(١) د/ حسن الباشا ، الفنون الإسلامية والوظائف ، جـ٣ ، ص ١٠٥٣ .

١١ـ اهتم المسلمون بترجمة الكتب الفارسية والسريانية واليونانية إلى اللغة العربية وكان من أوائل المترجمين أبو يحيى البسطريق الذي ترجم عن اليونانية وحسنين بن اسحق شيخ المترجمين وهو من نساطرة العرب، وأعلم أهل عصره في الطب. ومنهم أيضاً بوحنا بن ماسويه وهو معلم حسنين بن اسحق ثم جرت بعد ذلك حركة الترجة من العربية إلى اللاتينية وغيرها من اللغات الأوربية، وكان لهذه الحركة أكبر الأثر في بعث روح النهضة في أوروبا.

١٢ ـ صار للمدرسين دور سياسي إلى جانب وظيفتهم التعليمية، فلم يقتصر المدرسون على أن يكونوا مجرد معلمين فحسب، بل صارت لهم أهميتهم في مجال السياسة الداخلية والخارجية، كما كان يختار منهم رجال الدولة والإدارة كالولاة وأصحاب الشرطة والوزراء والسفراء وغيرهم كما كانوا بمثابة مستشارين للولاة والأمراء. وازداد نفوذ المدرسين بفضل سلطانهم الأدبي والروحي فعظمت منزلتهم بين الناس، ومن ثم استطاعوا أن يوجهوا الرأي العام، فعنوا بتأسيس المدارس وتعريب المدرسين حتى يضمنوا كسب الرأي العام واستقرار الأمور، وانتصار المذهب السني وبالتالي سلطانهم السياسي(١).

(١) نفس المرجع، ص ١٠٥٣ ـ ١٠٥٥.

١٣ ـ أسس السلطان نظام الملك سلطان الدولة السلجوقية مدارس في أنحاء الدولةن في بغداد والبصرة وأصفهان والموصل وغيرها، وكانت هذه المدراس تسمى بالنظامية نسبة إِليه. وانتشرت المدارس في خراسان والعراق وأسيا الصغرى على نمط المدرسة النظامية. وتولى نور الدين محمود إِنشاء المدارس في الشام والجزيرة فأسس المدرسة النورية في دمشق وتأسست مدارس أخرى في حلب وحماة وبعلبك وحمص والبصرة وكان يفد إِليها العلماء من بغداد ونيسابور وقرطبة وغرناطة ومراكش.

وفي عصر الفاطميين أسس صلاح الدين المدرسة الناصرية (الشريفية) ثم توسع صلاح الدين في إِنشاء المدارس فأنشأ المدرسة الصلاحية ومدارس أخرى في مصر وأسس في سوريا مدارس كثيرة.

غي أنحركة بناء المدارس قد استمرت حتى أواخر الخلافة العباسية. وأشهر هذه المدارس المدرسة المستنصرية التي أنشئت في بغداد لتدريس المذاهب الأربعة. وهي أول مدرسة جمعت فيها المذاهب الأربعة وكان بها الجامع.

ثم ازدهرت المدارس في عصر المماليك ومن بعدهم العثمانيين.

ثم ازدهرت المدارس في غرب العالم الإسلامي، فقد انشئت المدارس في قرطبة وأشبيلية وطليطلة وغرناطة وحلقا وغيرها. ومن أهم المدرسين القاضي عياض. واهتم بنومرين ببناء المدارس في بلاد المغرب وخاصة في مدينة فارس ومن أشهرها مدرسة الصهريج ومدرسة العطارين وغيرها وفي شرق العلام الإسلامي سار المعقول على نهج السلاجقة والعباسيين فأنشأوا المدارس في بلادهم(١).

وإذا كانت المدارس هي معاهد الدراسات التخصصية والعليا، فقد عرف العالم الإسلامي معاهد تعليم الأطفال والصغار من الذكور والإناث وهي المعروفة بالكتاتيب.

١٤ ـ كما آمن علما ء المسلمين بفكرة التخصص، فقال ابن قتيبة ، من أراد أنيكون علاماً فليطلب فنا واحداً كذلك امتدح العلماء التركيز ونادوا بالابتعاد عن المقدمات والاستطراد. ثم أن القرآن نص أولئك على أن الطبيعة مصدر هام من مصادر العلم، وذلك فتح الإسلام الباب على مصراعيه للبحث في هذا الميدان بحثاً تجريبياً واقعياً(٢) وأدى ذلك إلى ظهور المذهب التجريبي. وعنه أخذ الأوربيون ونقلوه عن العرب من أجل الوصول إلى الحقيقة.

---

(١) د/ حسن الباشا، المرجع السابق ، ص ١١٠ ـ ١١٢ .

(٢) عباس العقاد، أثر العرب في الحضارة الأوربية ، ص ٩٨ ـ ٩٩ .(١) د/ عز الدين فراج

رابعاً: أثر الحضارة الإسلامية في الحياة الاقتصادية.

١ ـ الزراعة:

حظيت الزراعة بكثيرمن العناية فمن المعروف أن الزراعة تزدهر في ظل ا لحكومات القوية التي تعمل على توفير مياة الري واستصلاح الأرضاي وتيسير نقل المحاصيل.

وقد عملت الدولة على إصلاح الأراضي وحفر القنوات والترع القديمة ونقل المحاصيل الزراعية وتبادلها بين الولايات الدولة.

واشتهرت الدولة الإسلامية بزراعة الحبوب والفواكه والقطن والأزهار والخضروات والنباتات والحشائش (كمصدر للأدوية والعقاقير). وأدخل العرب تحسينات جمة على طرق الحرث والغرس والري، وهذا ما جعل الأندلس في عهدهم جنة الدنيا[١]. وقد نقل الأوربيون الكثير من الزراعات وطرق الري إلى أوروبا.

٢ ـ الصناعات:

مارس المسلمون كثيراً من الصناعات ومن أهم هذه الصناعات العمارة، فقد ترك المسملون أثار كثيرة من العمائر الإسلامية من مساجد ومدارس

(١) د/ عز الدين فراج، المرجع السابق ص ٥٦ ـ ٦٠.

وقلاع وحصون وقصور وأسواق وأسوار مدن وأربطة ومساكن وغيرها. كما شقوا الطرق وعبدوها وشقوا القنوات وشيدوا القناطر ،وتتميز العمارة الإسلامية بميزات خاصة كالمآذن والقباب والعقود والأعمدة والمحاريب ومن أهم العناصر المعمارية الإسلامية المقرنصات وهي أشكال زخرفية على شكل محاريب صغيرة ويتم زخرفتها بالخشب والمعدن.

واهتم المسلمون كذلك بصناعة النسيج التي ارتقت وتقدمت في العصر العباسي ووجدت أنوال للنسيج تشرف عليها الدولة وكان يطلق عليها اسم الطراز ومن أهم مركز صناعة النسيج في مصر. دمياط والأسكندرية والفيوم. وكان القطن والكتانت ينسجان في مراكز الصناعة المصرية، كما كانت مراكز النسيج في العراق متقدمة في كذلك في إيران وإسبانيا(١).

ومن الصناعات الأخرى صناعة الزجاج وصناعة الفخار والخزف، وازدهرت صناعة المعادن في العلام الإسلامي ازدهار كبيراً، واشتهخرت صناعة السيوف والرماح والخناجر والدروع والتروس وغيرها. وكذلك صناعة الحلي بمختلف أشكالها. و غني المسلمون بضرب النقود وسكها من الذهب والفضة والنحاس في العملة الرئيسية الدينار من الذهب والدرهم من الفضة(٢).

(١) د/ حسن الباشا ، المرجع السابق ، ص ١٦٢-١٦٧ .

(٢) نفس المرجع.

واشتهر المسلمون بصناعة الخشب المطعم بالعاج وصناعة الزجاج والبلور الصخري كالمصابيح وصناعة الجلود وصناعة السجاد وصناعة الورق وصناعة الحرير وغيرها:

٣ ـ التجارة والمواصلات:

انتعشت التجارة في الدولة الإسلامية، فقد حدث ازدياد مضطرد في التجارة في الدولة العباسية سواء في التجارة الخارجية أو الداخلية.

وفي مجال التجارة الخارجية كان للعالم الإسلامي علاقات تجارية مع غرب أوروبا وشمالها، ومع الشرق الأقصى، ومع القارة الأفريقية. وكانت العلاقات التجارية مع غرب أوروبا تقوم على تصدير الرقيق إلى العالم الإسلامي، وكان الرقيق تجلب إلى الموانئ الفرنسية ثم يحمل منها إلى العالم الإسلامي.

وقد ظل التبادل التجاري مستمراً بين العالم الإسلامي والدولة البيزنطية ومع شمال أوروبا، حيث كانت الدول الأسكندنافية تصدر الفراء للعالم الإسلامي، وكان العالم الإسلامي يستورد الحرير من الصين والفيلة والتوابل والأخشاب من الهند، كما كانت القارة الإفريقية تصدر الى العالم الإسلامي الذهب والأبنوس والعاج.

أما التجارة الداخلية فكانت تعتمد في انتقالها إما على الطرق البرية أو الطرق المائية من أنهار وقنوات وبحار. ويلاحظ أن العرب اهتموا بالطرق

كوسيلة للمواصلات ونقل المتاجر وسير القوافل، فعنو بتزويدها بالقصور أو منازل الاستراحة، وحفروا الآبار والعيون لإمداد المسافرين بالمياة اللازمة، ولاشك أن العناية بالطرق تعتبر من الإسلام من الواجبات الدينية لاتخدامها في الحج إلى بيت الله وزيارة المسجد النبوي الشريف.

٤ ـ الفنون الإسلامية:(١)

نشأت الفنون الإسلامية حول منحورين هما: المسجد والمصحف، فاهتم المسلون ببناء المساجد من الناحية المعمارية والزخرفية والعناية بأثاث المسجد والرغبة في تجميله. كما اهتم المسلمون أيضاً بالمصحف وتكونت حوله أنواع أخرى من الفنون الإسلامية، ومنها فنون الخط وتذهيب المصحف وتزويقه وتجليده.

وظل هذا الأساسان عامل توحديد في الفنون الإسلامية التي استوحت روح الإسلام وتعاليمه، وتأثير الفن الإسلامي بالرغبة في تجميل الحاية. فقد بلغ الفن الإسلامي في الزخارف الهندسية مرتبة الإيرانية أي فن آخر.

ووجد في مصر الفن الفاطمي ثم الرطاز الأيوبي ثم الطراز المملوكي، كما وجد في الأندلس فن أندلس (الطراز الأموي الغرب). أما في دمشرق العلام السلامي فقد حل الفن السلجوقي. وقام في إيران الطراز

(١) د/ حسن الباش، المرجع السابق، ص ١٣٣ ـ ١٣٥.

الغولي ثم الطراز الصفوي وقام في الهند طراز هندي إسلامي وفي آسيا الصغرى طراز آخر(١).

ويرجع الفضل في نشأة بعض الفنون الأوربية إلى الفن الإسلامي، مثل الفن القوطي: وكان مجيء الحجاج الأوروبيين إلى فلسطين أثر كبير في تبادل العناصر ا لفنية بين علام الإلامي وأوربا.

ومن أهم الفنون التي ازدهرت في العلام الإسلامي الخط العربي أو الكتابة العربية التي تطور كثيراً بعد ظهور الإسلام. وأصبح هناك أشكال كثيرة من الخطوط من أهمها الخط الكوفي وخط النسخ والخط الفارسي ولاخط الهمايوني والثلث والديواني والرقعة(٢).

وهنا جانب آخر الفنون الحسية كان للمسلمين فيه فضل على الغرب الأوروبي ، ونعني به الموسيقى. وقد أثر ا لعرب في الموسيقى الغربية وتطورت بفضل علماء المسلمين في هذا المجال. وقد ظهر أثر العرب في السلم الموسيقى الذي اعترف علماء الموسيقى في الغرب بفضل العرب في هذا المجال وخاصة المدرسة الموسيقية في بغعداد. كما ازدهرت الموسيقى العربية بالأندلس، فوق الطلاب الأوربيون إلى قرطبة حيث ترجموا كتابات العرب في علم الموسيقى إلى اللاتينية، كما عرف الأوربيون كثيراً

(١) د/حسن الباشا، دراسات في الحضارة الإسلامية ، ص ١٣٦ ـ ١٤٦ .

(٢) نفس المرجع ، ص ١٤٦ ـ ١٥٩ .

من الألات الموسيقية عن طريق مسلمي أسبانيا، وقد ترك العرب بصماتهم واضحة بوجود عدد من المصطلحات والأسماء الموسيقية التي نقلها الغرب إلى لغاته فلفظ **Guitar** مأخوذ من قيتارة **Ribile** مأخوذ من رباب و **Naker** من النقارة و**Kanoon** مأخوذة من القانون وغيرها(١).

فضل علماء المسلمين على أوروبا

١ ـ جابر بن حيان رائد علم الكيمياء

جابر بن حيان كيميائي المسلمين الأول، وعلم من أعلام المسلمين، لم تكن الكيمياء قبلة علماً على التجربة العلمية، بل كانت نوعاً من الصناعة يتناقلها الناس بلا تجربة أو مشاهدة. ولهذا سمى جبر بن حيان برائد علم الكيمياء، وارتبط اسمه في الشرق الغرب بأول من وضع الكيمياء على أسس علميةم، حتى أن جامعات أوربات في مطلع النهضة الأوبية لا تعتمد على مراجع في علم الكيمياء غير كتب جابر بن حيان(٢).

وقد وضع جابر بن حيان نظاماً علمياً يرى أن يلتزم به كل من يعمل في الكيمياء يقوم على الأسس التالية:

---

(١) أحمد أمين، ظهر الإسلام، جـ٣، ص ٣٠١ ـ ٣٠٢.

(٢) د/ عز الدين فراج، فضل علماء المسلمين على الحضارة الأوروبية، القاهرة دار الفكر العربي، ١٩٨٦، ص ٤٥.